الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

"الروم (٢٧ - ٢٨)"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يتقبل منا أعمالنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يعاملنا بعفوه، فهو -سبحانه وتعالى- العفو، يعفو عن زللنا وخطئنا، يعفو عن تقصيرنا، يعفو عن عدم تقديرنا له حق قدره، ولا شكره -سبحانه وتعالى- حق شكره. نسأله بمنّه وكرمه أن يجعل ما بقي من أيام هذا الشهر المبارك زادًا لنا نتزود به، ونخرج من هذا الشهر وقد طهرت قلوبنا، وامتلأت بالإيمان، وعرفت حق الرحمن -سبحانه وتعالى- فلا تضرب له الأمثال، ولا تلتفت لغيره، وهو العظيم الكريم الرحيم القريب المجيب، اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا، اللهم اجعل الحقائق الإيمانية مكشوفة أمام عينينا، نراها مثلما نرى الشمس وآثارها، اجعلنا مع الحق وللحق ناصرين يا رب العالمين.

نقف اليوم على مثل من الأمثال الخاصة المختلفة. وهذا المثل في سورة الروم وهو يشبه المثلين المضروبين في سورة النحل، وهذه الأمثال مختلفة عن

بقية الأمثال التي وردت في القرآن، فهذه الأمثال مضروبة في حق الله، مضافة إلى الله -سبحانه وتعالى- مبنية على ما نسميه بـ"قياس الأولى" إن شاء الله يتبين لنا الأمر أكثر حين نناقش مثل اليوم.

نبتدئ كالعادة نناقش سياق المثل، وهذا المثل في سورة الروم أتى -تقريبًا- في مبدأ السورة بعدما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عن أخبار عظيمة من أفعاله، ثم أتى هذا المثل. نبدأ من مطلع السورة حتى نصل إلى المثل:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

هذا مطلع السورة وهو من المطالع المختلفة، وفيها من الأخبار العظيمة الدالة على عظمة رب العالمين، وعلى مداواته لقلوب المؤمنين. كانت فارس يوم نزلت هذه الآيات قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفرس؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب. أهل الإسلام، الذين بعث فيهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يحبون أن مثلهم الذين معهم كتاب من عند رب

العالمين، ولهم رسول من عند رب العالمين أن ينتصروا؛ لذلك رب العالمين قال: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ) في مقابل ذلك كانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان، لا يؤمنون بالبعث، وهذه كانت القضية. فلما أنزل الله هذه الآية، حصلت أحداثًا منها أن أبا بكر -رضي الله عنه- خرج يصيح في نواحي مكة بالآيات، ورفع الصوت بهذه الآيات من اعتزازه بالدين وفرحه بما نزل، وأن هناك خبرًا عن غيب سيأتي. ثم في مقابل هذا قال أناس من قريش لأبي بكر: "فذلك بيننا وبينك" فحصل ما حصل من أحداث وتأخر الوقت.

أخذ المشركون رهن أبي بكر، فتأخر الوقت، لما دخلت السنة السابعة من هذا الرهان ظهرت الروم على فارس.

المقصد أن نرى، كيف أن رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم يدبر الأمر، ويداول الأيام، ويُفرح المؤمنين بنصر أهل الإسلام، بل حتى أن المؤمنين قد يفرحون بأسباب قد لا تعود عليهم هم مباشرة بالفائدة، لكنها تنصر الحق أو أحسن من يحمل الحق من السيئين. فالروم والفرس، في نهاية الأمر، كانوا وبقوا أعداء،

لكن عدوًا عن عدو يختلف. وهذا مما يفهم في الطبيعة الإنسانية؛ أن أعداء لو شاركوك شيء كثير من الحق ستكون عداوتهم أهون ممن لا يشاركك في الحق.

في هذه الآيات الكريمات يظهر أن هذه المملكة التي نعيش فيها، تدبيرها للملك؛ (يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). بداية السورة أشارت إلى هذا المعنى المهم، وهو أننا جميعًا عبيد في مملكة الملك -سبحانه وتعالى- وأنه ينصر من يشاء، يعطي من يشاء، يدبر الأمر كما يشاء. لا تقل: "لم هزمت الفرس الروم، رغم أن هؤلاء أهل كتاب وهؤلاء أهل نار وشرك ووثنية؟" هذا شأن الملك، لا تنتقد أفعاله، وإنما أنت عبد في هذه المملكة، والرب -سبحانه وتعالى- هو الذي يدبر الأمر. الفرس مشركون يعبدون النار، والروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، الروم أقرب إلى المسلمين من الفرس، حبكم لنصرة الروم على الفرس حب طبيعي. في مقابل ذلك أن أهل الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم لاشتراكهم في الشرك. يكون في الأرض والواقع ما يشاؤه الله ويقدره، (يَنصُرُ مَن يَشَاءُ) فهذه الابتلاءات التي تحصل في الدنيا من تسليط أهل الباطل على أهل الحق، لا تظن أنها تبقى، ولا تظن

أن هذا دليل على أن أهل الحق ليس معهم حق، ولا تظن أن أهل الحق لا يُنصرون في الدنيا. لا تفهم هذا أبدًا، إنما هذا من سنن الله المعلومة أنه ينصر أهل الإيمان، لكن متى؟ ومن يعيش هذا النصر؟ من يذوقه؟ الله أعلم، لكن نعلم أن هذه مملكة الملك الذي (يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، ينزع الملك ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ومع ذلك فهو رحيم بعباده المؤمنين، رحيم إلى درجة أننا في موقف الروم والفرس ربنا قيض لأهل الإسلام الضعفاء المستضعفين أسبابًا تسعدهم وتنصرهم، وتدخل في نفوسهم السعادة، من شيء لا يدخل في حسابهم.

ننتقل إلى الآيات التالية التي تنقلنا إلى فهم ماذا يجب علينا أن نعتقد في رب العالمين. نقرأ من الآية السادسة حتى الآية العاشرة:

(وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ

مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)

هذه الآيات البينات الواضحات تشير إلى ما هو مقرر من أننا عبيد في مملكة الملك؛ لذلك قال عزَّ وجلَّ: (وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون ماذا؟ لا يعلمون حكمته، لا يعلمون أفعاله المحكمة، أفعاله التي تجري وفق العدل، والسبب في ذلك جهلهم، عدم تفكرهم. الله ينصر من يشاء، يعز من يشاء، يعطي الملك من يشاء، ينزع الملك ممن يشاء، لكن في نهاية الأمر النصرة لأهل الإيمان، هذا وعد لا يُخلف، والقضية أن (أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ، لا يعلمون ماذا؟ لا يعلمون حكمته، تدبيره في مملكته، اختباره لخلقه، الحكمة من وراء هذه الأمور. ما السبب في أنهم لا يعلمون؟ السبب أنهم مشغولون عن التفكير في هذه الأمور لمعرفة ظاهر الحياة الدنيا. يقول أحد:

"هل (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) بمعنى أنهم يفهمون كيف يدبرون شؤونهم؟" حتى المؤمن يعرف كيف يدبر شؤونه، ليس هذا هو المقصود وليس هذا المذموم، الذي يعلم عن الحياة الدنيا ويعرف كيف يدبر شؤونه لا يُذم على ذلك فالدنيا مزرعة، لكن المقصود أن يكونوا مشغولين بهذه الحياة الدنيا عن الآخرة، وهذا يجعلهم يفكرون بطريقة مادية، يفكرون في الحياة الدنيا دون الغيب، (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) لا يفكرون في الغيب، ولا يفكرون في لقاء رب العالمين. فهذا يجعلهم محصورين، تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا، تفكيرهم منحصر في المحسوسات، في الماجريات، في الظواهر ولا يعلمون بواطن الدلالات التي تحتاج إلى تفكير ونظر. فهم يعلمون ظواهر ما في الدنيا ولا يعلمون دقائق ما في الدنيا، بحيث أنهم يصلون -من خلال الأحداث التي تجري ومن خلال الآيات التي حولهم- إلى العبرة، يصلون إلى ما تشير إليه هذه الأحداث، أو هذه الآيات. وبمثال بسيط؛ النظر إلى الشمس، ينظرون لها على أساس أنها مصدر للضوء، على أساس أنها مصدر للدفء، على أساس أنها مصدر للطاقة، إلى آخره. لكن لا ينظرن لها على أساس أنها

تشير إلى عظمة رب العالمين وإلى انتظام كونه الدال على أنه الواحد القهار، لا يفكرون بهذه الطريقة. فهم (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، لكن لا يعلمون دقائقها، لا يعلمون دلائلها ومن ثم غفلوا عن الآخرة.

إذًا معرفة الحياة الدنيا لأجل الاستفادة مما حولنا ليست مذمومة؛ لأن المؤمنين أيضًا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، إنما المذموم أن الإنسان يعلم ما هو ظاهر من أمور الدنيا، ولا يعلم أن وراء عالم المادة عالمًا آخرًا هو عالم الغيب، فيُخرج الغيب من حساباته، وإذا أخرج الغيب من حساباته أوقعه هذا في ورطة إهمال الآخرة وإهمال الاستعداد لها، (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ). معنى ذلك أن علومهم الدنيوية جعلتهم ينفون الغيب، لماذا أُشير في قوله: (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) إلى الغفلة، لماذا الغفلة وليس الجهل؟ كأنه يقال إن كل شيء يدلك على أنك ستلقى ربك، كل شيء يدلك على أن هناك بداية ونهاية، كل شيء يدلك حولك، وأنت تفهم بفطرتك السوية، أن كل شيء لا بد أن يكون له غاية، وجوده يسبب الغاية، كل شيء في الدنيا له غاية من شمس وقمر وجبال وصخور وبحار، كل شيء له غاية وأنت سيد الكون ليس لك غاية؟! كيف؟! لكن

(هُمْ غَافِلُونَ) عن هذه الدلالة، مهملون لها، هم لو اهتموا لانكشفت هذ الغفلة.

رب العالمين أشار لهم كيف تنكشف هذه الغفلة؛ (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم)؟ يعني لو فكروا فقط في أنفسهم سيخرجون بهذه النتيجة، سيكتشفون هذه الحقيقة، في أنفسهم آيات تعرفهم مَن أوجدهم من العدم، في أنفسهم آيات لا تنتهي، لكن ليس شأننا في أن نتكلم الآن عن ذلك. في نهاية الأمر من استيقظ من غفلته وفكر فيما حوله تفكيرًا سليمًا، بطريقة سليمة سيعرف أن: (مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)، للدلالة على الحق، (إِلَّا بِالْحَقِّ)، تُعرف الناس الحق (مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)، إذًا: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) فيعملوا. لو تفكروا لوصلوا إلى هذا. كل ما في السماوات والأرض يدلنا على الحق وأن كل شيء له أجل مسمى، وأنت معهم لك أجل مسمى أيها الإنسان، فكيف لا يكون وراء هذا شيء؟! لا يمكن، هذا سفه، تعالى الله عن ذلك.

انظر إلى هذه المملكة وتدبيها، وانظر إلى الآيات العظيمة فيها ستعرف هذه الحقيقة في نفسك وفي الأشياء حولك. أيضًا هناك طريقة أخرى حتى تنكشف

عنك الغفلة، ما هي هذه الطريقة؟ (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) سِر في الأرض وانظر للناس كيف كانوا متمكنين غاية التمكن هنا آثار وهنا قصور وهنا أشجار وهنا حدائق وهنا مجوهرات مدفونة تحت الأرض، إلى آخره. أين ذهب هؤلاء؟ فكر فيهم! لذلك حين تسمع: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) فكر في هذا الأمر وستعلم أنك معهم زائل، وأنه لا يمكن أن يكون هذا كله لمجرد أن يكون، بدون غاية وراء هذا. انظر في الأقوام الذين كانوا من قبل وفكر كما ينبغي، والله -عزَّ وجلَّ- لا يظلم العباد، أبدًا! إنما يعطيهم كل الفرص، فإذا هم أعرضوا وأصروا واستكبروا جاءهم جزاءهم، (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا) هذا دليل على أنهم كانوا مصرين ممتلئين بهذا الأمر، كانوا يظلمون أنفسهم. هؤلاء الذين أساؤوا عاقبتهم كانت أسوأ ما تكون، والسبب أنهم كذبوا هذه الدلائل، كذبوا الرسل الذين آتوهم بهذه الدلائل، كذبوا كل شيء يرونه حولهم.

سيخبرنا رب العالمين الآن عن الدلائل العظيمة التي تدل أن النهاية لا يمكن أن تكون في هذه الحياة، وما الذي يجعلك تقول: "المانع أن تكون هناك حياة بعد

ذلك؟" فيخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- بالدليل ثم بالحال التي سيكون عليها الخلق:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

هذه الآيات الكريمات ابتدأت بالدليل الواضح القاطع الذي يدل على أن هذا الأمر يسير على رب العالمين، فما الذي يجعلكم تستبعدون أنكم إذا متم تعودون؟ (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ما هو الشيء الغريب أو الصعب في فهمكم لهذا الأمر؟ كما أنه انفرد ببداية الخلق، سينفرد بإعادته، سبحانه وتعالى. هذه مملكة الملك، يدبرها كيف شاء، جعل فيها قوانين وسنن، وأخبركم عنها، أنتم تسعون لمعرفة سننه في الكون، تسعون لتعرفوا لماذا السفينة تطفو ولماذا السحاب يجري، ولماذا كذا يحصل، وأين هي المعادن وكيف نصهرها؟ تفكرون في سنن الله في الأرض، هذا

لا مانع منه، لكن تغفلون أن كل هذه السنن وكل الأشياء التي تجري تدفعك إلى طريق واحد، وهو معرفة رب العالمين، ومعرفة أن الإعادة بمنطوق الخلق جميعًا، الذين خلقهم ربنا، بفطرة الخلق، الإعادة أيسر من الابتداء، (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) سبحانه وتعالى. ثم ذكر الجزاءات. هنا تلحظ أن رب العالمين بيّن أن هؤلاء حين يبعثون يوم تقوم الساعة، هؤلاء المجرمون ييأسون من كل خير لأنهم ما قدموا أي شيء، تأتيهم المفاجأة، كأنه هنا يشار إلى الاستيقاظ من الغفلة، طوال الوقت يجرون لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، تصور حين يأتيهم رقاد الموت، ثم يستيقظون فما يجدون إلا أنهم قابلوا رب العالمين، هذه حالتهم! لا بد أن يكون من حالهم اليأس من كل خير؛ أيسوا وأبلسوا وأفلسوا وضل عنهم ما كانوا يفترونه من أن شيئًا سينفعهم. ونركز على هذا المعنى لأنه سيكون أحد مقومات المثل الذي سيأتينا. ورب العالمين يبيّن أنهم ليس لهم شركاء (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ) لأن في الحقيقة هؤلاء الشركاء لا شيء، لكنّهم جعلوهم مع الله شركاء، (وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)، تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وأيضًا يتبرأ المعبودون ممن يعبدونه، كما سمعنا

في قوله تعالى: (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ). هنا يحصل الافتراق؛ أهل الخير مع أهل الخير وأهل الشر مع أهل الشر، وأخبر -سبحانه وتعالى- كيف سيكون الحال.

بعدما عرفت أحوال هؤلاء الذي كذّبوا في الدنيا وأنكروا أن يكون هناك غاية وهدف من الوجود، ليسوا أغبياء ولا يفهمون، هم بعقول أهل الدنيا (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، لكنهم في الحقيقة ما استفادوا من هذا. يراد منا أن نعود مرة أخرى وننظر إلى تدبير الملك في مملكته، انظروا إلى تدبير الملك في مملكته وتفكروا فيه، وننظر ونتأكد أن هذ الآيات كانت واضحة جدًا، لكنهم هم كانوا غافلين عن دلالتها، في الآية الثامنة سمعنا قوله: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) وسمعنا أيضًا: (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) في الآية السادسة، هذا سببه أن هناك آيات بينات واضحات هم لا يهتمون ولا يفكرون بها من جهة كونها تدلهم على الحق، وتدلهم على سبب وجودهم، لا يفكرون في هذا أبدًا.

الآن، ستمر علينا مجموعة آيات كلها تقول: "عليكم أيها الناس، من آمن منكم ومن لم يؤمن بعد، أن ينظر

إلى هذه الآيات ويخرج منها بهذه النتيجة؛ أن يكون مسبحًا، حامدًا، ذاكرًا لله في كل أوقاته" انظر لأفعاله، تعرف عليه، اذكره بالتسبيح والحمد، والتسبيح والحمد سيكون لهما شأن معنا، سيتضح لنا، هنا سنبدأ بالكلام عن تسبيحه وحمده كما هو واضح في الآيات السابعة عشر والثامنة عشر:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

"الفاء" تدل على أن هناك اتصال بين هذه الجملة القرآنية العظيمة وبين ما قبلها، فهذا -والله أعلم- عائد إلى الآية الثامنة وإلى الآية السادسة، يعني ما تفكروا ولا استدلوا على الحق من خلال ما خلق وتركوا أنفسهم في علوم الدنيا، (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)، تركوا أنفسهم لهذا فشوّشت عندهم معرفة الرب -سبحانه وتعالى- وشوشت عندهم ترتيب أولوياتهم وعلاقاتهم، ما عرفوا أنهم يعيشون في مملكة الملك، وأنه هو الذي أنشأها، أعدها وأمدها، وهو الذي يدبرها، وهو متى ما شاء أنهاها، وحاسب العباد الذين كانوا يعيشون عليها عن مدة حياتهم ماذا فعلوا فيها؛ لذلك لو تفكرت ستصل إلى معرفتك لله الموجبة

لك التسبيح والحمد. اسمع شيئًا من أفعاله، تصور هذه المملكة كيف نشأت من عدم، وهذا يجعلنا -مرة أخرى- نعود إلى مسألة التسبيح والحمد ونفكر أن حق الله التعظيم والإجلال، وحقه الشكر، فهو الذي أوجد هذه المملكة من عدم، وهو الذي أعدها لنعيش فيها، وهو الذي أمدها، ولا يزال يمدها -سبحانه وتعالى-، هذه الأخبار الآن نقرأها متتابعة ونشير إليها بالإجمال؛ حتى يبقى الوقت المتبقي لفهم المثل. نقرأ من الآية التاسعة عشر حتى الآية السادسة والعشرون:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

(24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ)

سبحانه وتعالى، له الحمد وله الشكر، كيف لا يسبحه الإنسان ويحمده وهو الذي أوجد هذه المملكة، وجعل فيها آيات تدل الإنسان -من خلال هذه الشواهد التي يعيشها- على الغيب الذي لا يدركه. لذلك في هذه المملكة له آيات؛ خلقنا، من آياته خلق الأزواج وجعل المودة والرحمة بينهم، من آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، من الآيات منامنا بالليل والنهار، وكون النهار نبتغي فيه من فضل الله، من الآيات البرق، وكيف أنه مقدمة لما ينزل من السماء، وكيف أن الذي ينزل من السماء يحيي الأرض. من الآيات العظيمة أن السماوات والأرض قائمات بأمر الله، ثم إذا أراد الملك العظيم أن تنتهي هذه السماوات والأرض بتقديره -سبحانه وتعالى- يموت الخلق ثم يدعون دعوة واحدة من الأرض، دعوة واحدة فيخرج الناس كلهم، في النهاية صاحب المملكة هو الله، (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) كل الخلق لرب الخلق قانت، فلا تظن أنك تخرج عن ذلك، الكل

خلقه وعبيده متصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، الكل قانت لجلاله خاضع لكماله، سبحانه وتعالى.

نتصور هذا المعنى بوضوح ثم نبتدئ بمقدمة المثل الذي يحتاج إلى كل هذه المقدمة، يحتاجها حاجة عظيمة، سنفهم المثل من خلال ما قرأنا في الآيات السابقة، نقرأ الآيات السابعة والعشرون والثامنة والعشرون:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

نلاحظ هذه الآية (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أعادتنا للآية الحادية عشر (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فهذا معنى متصل كامل، وهنا الإضافة (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) هذا أمر واضح، كأن هذا من باب التنزل مع الخصم وإلا فالأمر في حق الله كله يسير فلا

شيء أصعب من شيء أبدًا، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم بعقلك أنت الخلق الثاني أسهل من الخلق الأول؟ مثلما نقول له: هل إعادة المصنوع أسهل أو ابتدائه؟ الجواب سهل وواضح أن إعادته أسهل من ابتدائه، إذًا فكر بهذه الطريقة. يأتي هنا (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) سبحانه وتعالى، رب العالمين يريد منا أن نضع أنفسنا في المكان الصحيح، مكان العبيد الذين يتعاملون مع الملك العظيم. لا يمكن لك وأنت الضعيف الفقير أن تعرف قدر رب العالمين، فلا تفكر في رب العالمين مثلما تفكر في نفسك، ولا تفترض لرب العالمين مثلما تفترض أفعالًا، أو تفترض أن المفترض أن يحصل كذا في الكون أو في النصرة، على أنك حكيم وتفهم. الحقيقة أننا كلنا في حكم الضعفاء، كلنا في حكم الجاهلين الفقراء، وافهم هذا جيدًا من أجل ألا تتعدى على حق الله، فالله -عزَّ وجلَّ- له الكمال المطلق -سبحانه وتعالى- وكل كمال في المخلوق فإنما هو من عطاء الله. لذلك ننظر هنا إلى شيء مهم، نحن نعرف أن من أسماء الله السلام، ونعتقد أنه -سبحانه وتعالى- السالم من كل نقص وعيب، بل كماله سالم من النقص، في مقابل الخلق، تجد، إن كان عندهم كمال فيقابله نقص، وتجد كمالهم

نفسه ناقصًا. فلله المثل الأعلى، وإذا فهمنا هذا نفهم تابعًا له هذا المثل الذي ضربه الله -عزَّ وجلَّ- لنا، لكي نفكر فيه ونفكر في مسألة قياس الأولى. ما هو المثل؟

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ) هذا المثل لا يقال فيه: "انظر إلى دلالات الشمس والقمر" بل انظر إلى هذه الطبيعة الإنسانية المشتركة التي لا يمكن لأحد أن يختلف فيها، ما هي هذه الطبيعة؟ (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ) المعنى أن رب العالمين يريد منا أن نفكر، نحن عندنا خدم، وفي هذا المثل عندنا ما ملكت اليمين، يعني العبيد، عندنا هؤلاء كما في الأزمنة المتقدمة، هذا العبد هل يساوي سيد البيت وصاحبه في التصرف في الأشياء التي يملكها صاحب البيت؟ هل يساويه في إمكان التحكم؟ هذا المثل منتزع، مأخوذ من أنفسنا، أقرب شيء لنا وأبين شيء من غيرنا، في نفسك أنت لو عندك مملوك أو خادم، هل يمكن أن يساوى المملوك مع السيد في التصرف في ممتلكات السيد؟ هذا باطل، لا يمكن أن يتساوى السيد والعبد في الاستحقاق. وهؤلاء العرب، بل الخلق عمومًا، كانوا يعدون مشاركة عبيدهم لهم نقصًا يتنزهون منه، مثل حين يقول أحد لأحد: "هل

هذا الخادم يسيطر عليك؟" فيقوم بالدفاع عن نفسه أنه لا أحد يسيطر علي وأنا سيد البيت، أو أنا سيد الموقف، أو أنا سيد العمل، مثل هذا يرى الناس أنهم يتنزهون عنه، فالله أولى بالتنزه عن هذا النقص، وأولى بألا يكون له من عبيده شركاء، إذ هو -سبحانه وتعالى- أولى بكل كمال وأبعد عن كل نقص. ولكي نقرب المثل أكثر ونبين ما يمكن تصوره اليوم في الواقع، لو أن طبيب له سنوات خبرة عظيمة وتدرب تحت يده مجموعة من الأطباء، فجاء أحد المرضى وكلم أحد هؤلاء المتدربين، ثم أظهر أمام الطبيب الكبير، وأمام هذا الطبيب الصغير، وتكلم أمامهم كلامًا يدل على أن المتصرف، أو على أن الموثوق به، أو على أن صاحب الرأي هو الطبيب المتدرب! ماذا سيفعل الطبيب الكبير؟ سيرى أن هذه إهانة و"كيف تساوي بيني، وأنا صاحب الخبرة، وبين هذا المتدرب في علمنا وفي قدرتنا على تشخيص المرض وفي كذا من الأمور" ما يريد الطبيب صاحب الخبرة أن يتساوى مع الطبيب الجديد الذي يرى أنه طالب عنده أو أخذ من علمه. وابنِ على ذلك الأمر في كل شؤون حياتنا، ما

يقبل أحد يرى نفسه أعلى في شيء، متمكنًا من شيء، أن يساوى بأحد أقل منه.

فنعود إلى المثل: سيد وعبيد، هل يقبل السيد أن يتساوى معه العبيد؟ إذا كنتم أنتم لا ترضون بأن المملوك يشارك مالكه لما ترون في ذلك من النقص والظلم، ونلاحظ الأمرين، هل ترضون ذلك لله وهو أحق بالكمال وغني عنكم؟! فالله -عزَّ وجلَّ- أحق بكل كمال من كل أحد. ونلاحظ أن مساواة المملوكين بالمالك فيه نقص وظلم، النقص أن لا أحد يرضى أو يقبل أن مملوكه يتصرف في ملكه، والظلم أن يساوى بين السيد والمالك، والظلم بمعنى وضع الأشياء في غير موضعها، هذا بالنسبة لكم، فكيف تنسبون هذا لرب العالمين.

نعود لمثل الطبيب: الطبيب الخبير يغضب لو سُوي في اتخاذ القرار بينه وبين الطبيب الحديث، ويرى الطبيب الخبير أن هذه إهانة له، "كيف تستشيرون الطبيب الحديث، وتساوون رأيه برأي الطبيب الخبير؟" سبحان الله! فكيف أيها الخلق تذهبون إلى الطبيب الخبير وتساوونه بالرب الطبيب الشافي المعافي، الطبيب الذي خلق وأوجد، الطبيب الذي يجري الدماء ويخلق العافية

ويردها على الإنسان بعدما فقدها، كيف تساوي بين هؤلاء العبيد والملك العظيم، وهذا ليس له علاقة أبدًا بأخذ السبب والذهاب إلى الطبيب، اذهب لمن شئت مثل أي سيد يتعامل مع المملوكين، اذهب لمن شئت لكن لا تساوي هذا الطبيب بالله الطبيب؛ لذلك لما كان يشتكي النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- من ظهره وأتاه الأعرابي وقال له: "أرني ظهرك فأنا طبيب" قال له: «اللهُ الطَّبيبُ ، بل أنت رجلٌ رفيقٌ ، طبيبُها الَّذي خلقها»[1] المقصد أنه لا يتساوى، نأخذ بالسبب، نذهب إلى الطبيب، لا مانع، لكن لا يمكن أن نساوي بين هذا العبد الضعيف الذي علمه رب العالمين، ونساويه بالملك، في مملكة الملك لا تساوي العبيد بالرب العظيم. لذا يقول ابن القيم في هذا المثل:

"والمعنى: هل يرضي أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله، حتى يساويه في التصرف في ذلك؟ يُرفع العبد إلى أن يتصرف مثلما يتصرف السيد، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ فإن

---

[1]() أخرجه أبو داود (4207).

كان هذا الحكم باطلًا في فطركم وعقولكم، مع أنه جائز عليكم، ممكن في حقكم، إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عباد لي، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي؟ مع أن جعلتموهم بي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول."

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) من أول السياق وأنت تسمع عن تدبير الملك في مملكته، أنه ينصر من يشاء، يعز من يشاء، أنه يحيي ويميت، أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، أفعال عظيمة، فكيف في مملكة الملك تساوي العبيد بربهم؟ كيف تفعل هذا الفعل؟ وانظر إلى حالنا، وانظر كيف نرفع المرزوقين إلى درجة الرازق. كيف نرفع درجة المدبَّرين إلى درجة المدبِّر، المملوكين إلى درجة المالك، سبحانه وتعالى. تعامل مع الناس كلهم، تعامل وخذ بالأسباب لكن لا تضرب لله الأمثال، ولله المثل الأعلى. إن كنت تعتقد أن هذا ينقل لك رزقًا فهو ناقل ليس رازق، وإن كنت تعتقد أن هذا يرشدك لطب، فهو رفيق ومرشد وليس شافٍ، إن كنت تعتقد أن هذا يؤنسك

ويدخل عليك السرور، فهو مسخَّر والله هو الذي أضحك وأبكى.

هكذا يكون هذا المثل من الأمثال العظيمة التي تتصل بحياتنا، في قانون الخلق لا يمكن مساواة العبيد بالأسياد، ولا المبتدئين بالخبراء، ولا الفقراء بالأغنياء في قدرتهم على التصرف. إذا كان الأمر بهذه الصورة، فكيف نساوي العبيد في الأرض، أو الخلق الذين هم في حكم الملك -سبحانه وتعالى- كيف نساويهم بالملك، عزَّ وجلَّ. فلتنزع من قلبك هذا الأمر؛ أن تعظّم أحدًا من الخلق فتراه هو السعادة، أو تراه هو الرزق، أو تراه هو العافية، إنما السعادة من الله، والرزق من الله، والعافية من الله، وفي النهاية أنت ستلقى الله فاستعد للقاء الله بمعرفة الله وله المثل الأعلى، ما يحصل هذا الشأن إلا بسبب ضعف معرفتنا بالله، وامتلاء قلوبنا بمعرفة الخلق، وليس فقط بمعرفة الخلق إنما نُخدع بالخلق فيكون أثر ذلك أن ينصرف العبد عن التعلق بالرب -سبحانه وتعالى- ويكون هذا سببًا لضعف استعداده للقاء ربه لأنه يضعف عن معاملته في الدنيا، لو كنا نعامل الله في كل شيء سنجد أنفسنا متعلقين به غاية التعلق،

ذاكرين له غاية الذكر راجينه منتظرين لقاءه. نسأل الله أن يجعل خير أيامنا يوم أن نلقاه.